Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 38:2 (2003)

بسم الله الرحمن الرحيم

# ملاحظات حول التفكيكية

شعبان محمد مرسي

مقدمة:

تعدّدت النظريات الأدبية في القرن العشرين، وتبعها في ذلك تعدّد مناهج النقد الأدبي، ويمثّل هذا تطورا كبيرا في الفكر الأدبي النظري ولم يسِر ذلك الفكر في مسار واحد نحو غاية موحدة، وإنما تقاطعت طرقه في أحيان كثيرة، وهدم بعضه بعضا في أحيان أخرى، فالبنيوية مثلا تخالف النقد الجديد، والتفكيكية تهدم البنيوية وهكذا. غير أن هناك شيئا عاما يراه الناظر في تلك المناهج والنظريات، هو التركيز على لغة النص، وإن كانت زاوية الرؤية مختلفة باختلاف الاتجاه.

النظرية التي أتناولها هنا هي النظرية التفكيكية التي نشأت في أعقاب البنيوية. ويشتمل درسي لها على عدة مسائل كبرى هي معنى التفكيكية، ونشأتها، وانتقالها من مجال الفلسفة إلى مجال الأدب، وأصولها التي تقوم عليها واتجاهاتها التطبيقية، وأتباعها من العرب والعجم، وجوانبها الإيجابية والسلبية، ثم ضعفها وزوالها.

وآمل أن يأتي البحث واضح الأسلوب، ظاهر القصد، وإن كانت كتب التفكيكية غامضة التعبير، عسِرة الهضم، تغلب عليها الغرابة الفلسفية، ومن الله نستمد العون، وعليه نتوكل.

## ١- معنى التفكيكية:

التفكيكية Deconstruction مصطلح وضعه الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا المولود عام ١٩٣٠م[١] واستعمله في كتبه الثلاثة التي أصدرها عام ١٩٦٧م، وهي:

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

١- **الكلام والظاهرة.**

٢- **علم الكتابة.**

٣- **الكتابة والاختلاف**(٢).

وتبعه في استخدام هذا اللفظ أولئك النقّاد الفرنسيّون الذين أعجبوا به، وكذلك النقّاد الأمريكيون الذين صاروا تفكيكيين بعد أن قرؤوا تلك الكتب إثر ترجمتها إلى الإنجليزية(٣) ولاسيما نقّاد مدرسة بيل.

**ماذا يعني مصطلح التفكيكية؟**

وضحت باربرة جونسون في كتابها **الاختلاف النقدي** أن التفكيكية ليست مرادفة للتدمير، وإنما هي أقرب إلى التحليل، وتفكيك النص لا يتم عشوائيا، ولا يعتمد على الهدم الجائر، بل يقوم على العناية بقوى الدلالة المتصارعة داخل النص نفسه وتوضيحا ولو حطم شيء ما من خلال القراءة التفكيكية فلن يكون النص، وإنما ستكون رغبة السيطرة الصريحة لنموذج من المعنى على آخر. القراءة التفكيكية قراءة تحلل تعدد الاختلاف النقدي للنص من داخله(٤).

هذا ما تراه باربرة، ولكن ديريدا مؤسس النظرية قصد حقا هدم الأسس التي يرتكز عليها الفكر الأوربي ولاسيما الأساس المركزي والإحالة إليه.

ويرادف مصطلح التفكيكية أحيانا "مصطلح ما بعد البنيوية Post-Structuralism" في بعض الاستعمالات(٥). وهذا من باب التغليب، لأنّ التفكيكية كانت أكثر شيوعا من غيرها بعد البنيوية. وكذلك يرد مصطلح "النقد التفكيكي Deconstructive Criticism(٦) وهو يحتوي على جزءين: نظري وتطبيقي، ويعدُّ مرادفا أيضاً للتفكيكية.

ويرى الدكتور محمد عناني أن الكلمة الفرنسية "التفكيكية Deconstruction" التي انتقلت إلى الإنجليزية موضوعة على أساس الألمانية Destruktion. وهو يقول أيضاً: "ولم يشتق منه فعل حتى الآن..."(٧)، ولكن الحقيقة أن الإنجليز قد اشتقوا من ذلك اللفظ فِعْلاً هو To Deconstruct،(٨) وبدأوا يستخدمونه، وقد ورد هذا الفعل مستعملا في قاموس **المصطلحات الأدبية** لمارتين جراي.

ويحدّد الدكتور عناني المصطلح بقوله: "فالتفكيك الذي اشتق منه المصدر الصناعي هو فك الارتباط أو حتى تفكيك الارتباطات المفترضة بين اللغة وكل ما يقع خارجها، أي إنكار قدرة اللغة على أن تحيلنا إلى أي شيء أو إلى أي ظاهرة إحالة موثوقا بها"(٩). ولا شك أن هذا التعريف دقيق، غير أن دقته ليست نابعة من شموله، وإنما هي منبثقة من إصابته أهم نقطة في وظيفة التفكيكية.

ولما شاع المصطلح وبلغت التفكيكية ذروتها، ثم مالت شمسها إلى الغروب انتقلت إلى العرب، ولعل الدكتور عبد الله محمد الغذامي أول من عني بهذه النظرية، وأحب منهجها من أبناء العرب، وقد ترجم المصطلح إلى العربية، واختار كلمة **التشريحية** مقابلا له(١٠). ويبدو أنه رأى اللفظ العربي ملائما من حيث المعنى للمصطلح الغربي. وأظنه تأثر بعنوان كتاب إنجليزي هو **تشريح النقد** "Anatomy of Criticism". بيد أن هذه اللفظة العربية لم تنتشر بين النقاد والمثقفين العرب، وغلبتها لفظة التفكيكية، فجرت على الألسنة.

والمقابل العربي الثالث هو **التقويض**، وضعه الدكتور ميجان الرويلي والدكتور سعد البازعي، وهما يريان أن هذه الكلمة أدل على قصد جاك ديريدا من كلمة التفكيك(١١). ولم يشيرا إلى كلمة التشريحية التي استعملها الدكتور عبد الله الغذامي على الرغم من أنهما استفادا من كتابه، وقد ذكرا بعض الأسباب التي حملتهما على تفضيل مصطلح التقويض على التفكيك، وهي:

١- التقويض أقرب من التفكيك إلى مفهوم ديريدا.

٢- التقويض لا يلتبس بمفهوم رينيه ديكارت وميكانيكية تفكيكيه للمفاهيم.

٣- التقويض لا يقبل ما يذهب إليه التفكيكيون في مقولة "البناء بعد التفكيك".

٤- التقويض يناسب وصف ديريدا للفكر الغربي الماورائي بأنه صرح يجب هدمه.

هذه هي العلل التي ذكرها المؤلفان، واستندا إليها في تفضيل مصطلح التقويض على مصطلح التفكيك في كتابهما "دليل الناقد الأدبي"، وهي علل ليست قوية، إذ إن منهج ديكارت يقوم على الشك وليس على الهدم، إنه شك من أجل الوصول إلى الحقيقة التي تقع خارج اللغة، على حين أن تفكيك ديريدا يعتمد على أنه لاشيء خارج النص، فهو يهدم العلاقة بين اللغة وما عداها. وعند تفكيك النص ينتج شرحه، وهو بدوره يصير نصاً، هذا النص بُنِيَ من الأجزاء التي فكّكها المفكّك يضاف إلى ذلك أن لفظ التفكيك لا يستلزم إعادة البناء كما يرى الكاتبان المذكوران. نخلص من هذا إلى أن التفكيك أو التفكيكية مصطلح مناسب ودقيق.

وقد درج النقّاد المصريّون على استعمال مصطلح التفكيك أو التفكيكية في كتاباتهم النظرية والنقدية مثل الدكتور صلاح فضل في كتابه **مناهج النقد المعاصر**(١٢) والدكتور محمد عناني في معجمه **المصطلحات الأدبية الحديثة** والدكتور جابر عصفور في ترجمته لكتاب رامان سلدن **النظرية الأدبية المعاصرة**(١٣) وتبعهم من جاء بعدهم في استعمال مصطلح التفكيك والتفكيكية.

## ٢- نشأة التفكيكية وتطوّرها:

ترجع التفكيكية في نشأتها الأولى إلى الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا الذي تأثر بالفيلسوف الألماني مارتين هايدجر[١٤] وبعالم اللغة سوسير. وكان الذي يشغل ديريدا هو عمل العقل، وكيفية تحصيل المعرفة، وهي قضية عني بها قبله هايدجر، وكان هذا الفيلسوف الألماني قد توصّل في تفكيره إلى أن الوجود كله والمعرفة لا تتم إلا باللغة، وفي اللغة يستقر كل شيء، وتحضر الكينونة، غير أن اللغة نفسها تجمدها التقاليد؛ ولذلك وجب تدميرها للحصول على المعرفة. ولفظة التدمير اللغوي هي التي فتحت الطريق لديريدا لابتداع لفظة التفكيك، ومن هنا يرى بعض الباحثين أن التفكيكية ترجع في نشأتها الأولى إلى هايدجر الألماني، ومن هؤلاء الدكتور عبد العزيز حمودة الذي يرى أن بعض الأفكار الأساسية في نظرية ديريدا التفكيكية مثل "المعرفة واللغة، الحضور والغياب، لا نهائية الدلالة، رفض الثوابت والقراءات المعتمدة، وغياب المركز الثابت للمعرفة، والتناص، وفوق هذا وذاك مفهوم التدمير ذاته، يتطابق مع فلسفة هايدجر التأويلية بصورة تتخطى حدود المصادفة أو تواتر الفكر[١٥]. حقا أن ديريدا قد استفاد من هايدجر، وقد سبق القول: إنه قرأ فلسفة هذا الفيلسوف، بيد أنه هو الذي أعطى التفكيك فكره كله حتى أصبح نظرية كاملة، ولا شك في أن أية نظرية ظهرت للوجود قد سلفت لها إرهاصات توحي بقرب ظهورها منذ أقدم نظرية نعرفها في التراث الإنساني. ولا ريب في أن بعض عناصر النظرية يكون السلف قد أدركوه قبل مجيء المنظر، إلا أن المنظر بسعة عقله وعمق فكره يبني من هذه العناصر وتلك بنيانا كاملا.

أيا ما كان الأمر فإن جل النقاد والفلاسفة يرون أن التفكيكية هي نظرية ديريدا. وانتقلت هذه النظرية من ميدان الفلسفة إلى ميدان الأدب ونقده، ولقيت إعجابا من النقاد، أو من كثير منهم، وكان لذلك القبول عوامل اجتماعية وسياسية ونقدية، من أهم هذه العوامل:

١- العنف السياسي الذي اجتاح أوربا، والتعصب الحزبي المقيت الذي بث العداوة بين الناس، حتى انتهت هذه البغضاء إلى إعلان الحرب العالمية التي دمرت كل شيء، وقتلت ملايين البشر بلا فائدة.

٢- الاستخدام السيّئ للعلم، حيث استطاعت القوى السياسية أن تحول اتجاه العلوم ومخترعاتها من إفادة البشر إلى الإضرار بهم، فصارت نتائج البحوث العلمية وَبَالاً على الناس، فشعر كل من له عقل أن لا فائدة أبدا من العلوم، ولاسيما جيل الشباب الأوربي، وهو أكبر طبقة تكبدت مآسي الحرب؛ ولذلك ظهر بينهم الاتجاه العبثي في الأدب، واللامعقول في التصرف، والشك في كل شيء، في الدين والمتديّنين والعلم والعلمانيين، والسياسة والسياسيين، وكل صغير وكبير، حتى اللغة نفسها،

واشتد الهوس العقلي والشبق الجنسي والاغتصاب والإجرام من كل نوع سراً وعلناً، وصار التخريب شعارا. وتحطيم التقاليد مبدأً.

٣- ولما استقرت الأمور عمت البطالة والركود الاقتصادي، فهاج الشباب خاصة في فرنسا، وهي البلد الذي شهد أكبر ثورة شبابية عام ١٩٦٨م، وانتهت بالفشل، وأعقبت تعاسة ومزيدا من الشكوك. وفي هذه الظروف التي تقبض النفس نشأت التفكيكية في فرنسا تحمل روح عصرها، إلا أنها لم تجد قبولا في موطنها، ليأْسِ الناس من النظريات كلها، ومن المنظرين جميعهم، من أجل ذلك انتقل صاحبها ديريدا إلى أمريكا، وهناك وجد في الولايات المتحدة قبولا يشجع عوضه عن عدم الاهتمام به في أوربا، وبخاصة في فرنسا.

٤- سقوط البنيوية كان عاملا من عوامل ظهور التفكيكية؛ إذ كان البنيويون يدّعون وضع قواعد علمية لدراسة الأدب، وبالغوا في ذلك حتى أضحى كلامهم قواعد نحوية للنص، تضم كل النصوص وما يستحيل على الانضواء تحت هذه القواعد، كان البنيويون يرغمونه على ذلك، فالعالم كله في حبة فاصوليا كما يقول بارت بعد تحوله من البنيوية إلى التفكيكية. فجفاف البنيوية، وحكمها بالموت على المؤلف، وتحجيمها لدور القارئ، وإغلاقها للنص جعل الناس تتحول عنها، وتشيح بوجهها عن نسقها ونظمها إلى أن ماتت، وورثتها التفكيكية عام ١٩٦٧م حتى هلكت هي الأخرى في بداية الثمانينيات.

٥- همود النقد الجديد في أمريكا كان من أعظم العوامل التي جعلت التفكيكية تنتشر في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فقد استطاعت هذه النظرية أن تجد أرضا فيها، وخاصة في ييل، وأن تحرك الماء الراكد، وأن توقظ النيام من النقاد فنهضوا ما بين مؤيد ومعارض.

٦- المزاج الأمريكي الذي يهوى الدعاية ويحسن التغليف والتسويق - كما يقول الدكتور عبد العزيز حمودة - قبل هذه التفكيكية، لأن حملتها كانوا يحسنون الدعاية،ويتقنون فنون الاستعراضات، فأخذت في أمريكا طابع الجدّة.

٧- عداوة الأمريكيين للبنيوية التي كانت ترتبط بالماركسية جعلتهم يرحّبون بالتفكيكية؛ لأنها نقيض تلك النظرية البنيوية؛ ولأنها تتيح للذات القارئة حرية الفهم والتفسير، وهم يحترمون ذواتهم ويبالغون في ذلك(١٦).

تأسست في الولايات المتحدة مدرسة من النقاد التفكيكيين أطلق عليها مدرسة ييل، وكان أبرز رجالها دي مان وبلوم وهارتمان وميلر وديريدا بعد هجرته من فرنسا واستقراره هناك. ووجد نقاد تفكيكيون آخرون في تلك البلاد لم ينضموا إلى مدرسة ييل مثل جوزيف ريدل.

ومن أعظم من طبقوا هذه النظرية في فرنسا رولان بارت، وكان من أنصار البنيوية ثم تحوّل إلى التفكيكية، وقد طبّق منهجها في دراسته لقصة بلزاك "ساراسين"(١٧).

### ٣- أصول التفكيكية:

إن جاك ديريدا يقرر أنه لا يوجد شيء خارج النص(١٨) والنص يتركب من أصوات وكلمات وجمل كانت لدى النقاد والفلاسفة السابقين تشير إلى أشياء خارج اللغة، وإليها يرجع الناس عند تحقيق المعنى. ولكن ديريدا نفى وجود ذلك المركز الذي يرجع إليه من يريد التحقق، وكان من أول أهداف ديريدا تقويض ذلك المركز سواء أكان الطبيعة أم الإله أم الإنسان، وكذلك حطّم الثنائية التي كانت قاعدة من قواعد الفكر الأوربي، وأساسها الترتيب، هذه الثنائية مثل: الروح/ الجسد - المعنى/اللفظ - الخير/ الشر - الرجل/ المرأة.

من هنا نبع الشك في الصرح الفكري الأوربي. فكيف يثبت المعنى إذن؟ عند ديريدا لا يثبت المعنى إلا داخل النص الذي يعتمد على الاختلاف؛ الاختلاف في الأصوات والكلمات والجمل والفقرات والبداية والنهاية والظاهر والباطن.

لقد نفى ديريدا كل شيء خارج النص، وحكم رولان بارت بالموت على المؤلف(١٩)، ومادام الكاتب قد رحل إلى العالم الآخر فلن نعرف ما قصده في نصه، ومن هنا جاءت مقولة انتفاء القصدية ولم يبق إذن إلا النص والقارئ وهما الأصلان اللذان تقوم عليهما التفكيكية.

### ما النص عند التفكيكيين؟

يعرف جاك ديريدا النص بقوله: "لم يعد [النص] منذ الآن جسما كتابيا مكتملا، أو مضمونا يحدّه كتاب أو هوامشه، بل شبكة مختلفة، نسيج من الآثار التي تشير بصورة لانهائية إلى أشياء ما غير نفسها، إلى آثار اختلافات أخرى، وهكذا يجتاح النص كل الحدود المعينة حتى الآن"(٢٠).

عندما نتأمل في هذا التعريف نجد النص عند التفكيكيين مختلفا عما كان عند النقاد السابقين، فالنص كان في نظر السابقين عملا كاملا قائما بنفسه، هكذا كان يرى أصحاب النقد الجديد، وكذلك كان يراه النقاد البنيويّون، ويزيدون أنه مغلق، لكن التفكيكيين يرونه طبقا لتعريف زعيمهم ديريدا، ليس قصيدة تامة، ولا خطبة موحّدة ولا مقالة مكتوبة، ولا كتابا تاما، ولا موضوعا محددا له بداية ونهاية. إنه شبكة مختلفة، هذا تشبيه يصور مفهومه، والشبكة مكوّنة من خيوط متقاطعة طولا وعرضا. وهو كذلك نسيج من الآثار، وهذه العبارة تشبيه أيضاً، والنسيج يتكون من خيوط متداخلة، وبعضها عكس بعض، غير أن الخيوط هنا آثار تشير إلى أشياء أخرى سابقة مختلفة،

وإشاراتها غير محددة ولا محدودة، إنها آثار اختلافات متناقضة. إنه نص لا حدود له. يمكننا أن نوضح تعريف ديريدا بأسلوب أيسر كالآتي:

أ- النص نسيج من آثار سالفة.

ب- النص يعتمد على الاختلاف.

ج- النص مفتوح على النصوص الأخرى.

كيف يتحدد المعنى إذا كان النص هكذا؟ لا يعني التفكيكيِّين تحديد المعنى لأن هذا التحديد ضد طبيعة النص. إن المعنى مراوغ، والقارئ هو الذي يمنح النص معنًى، كأن القارئ يشارك في إبداع النص، بل هو كذلك في هذه النظرية، ولذلك تتعدد المعاني بتعدد القراء، والتفسيرات التي ينتجها القرّاء كلها نصوص جديدة تولّدت عن ذلك النص المقروء، وهي جديرة بالتفكيك، والنص الذي تم تفكيكه امتداد لنصوص سابقة هو نفسه فكّكها، وكل القراءات خاطئة ونقيض ذلك صحيح. كل القراءات صحيحة، أي أنه لا توجد قراءة تحيط بمعنى النص إحاطة كاملة، وليس هناك قراءة تخلو من بعض معاني النص. إن النص لا حدود له ولا نهاية لمعانيه؛ معانيه تتعدد بتعدد القرّاء؛ لأن القارئ هو الذي يهب النص معنى. لو قال قائل: إن النص لا معنى له، كان قوله صادقا من وجهة النظر التفكيكية؛ إذ ليس هناك مركز خارجي أو مرجع يمكن التأكد من صحة المعنى بالاستناد إليه أو استشارته. لقد فصل التفكيكيون بين الدال والمدلول حين نفوا وجود أي شيء خارج النص على الضد من النظريات الأخرى التي تثبت وجود الأشياء الخارجية فتحيل إليها أو تجعل اللغة تشير إليها. النص في منظار التفكيكيين مجموعة دوال تشير إلى دوال أخرى. وهذه المشار إليها تصير مدلولات؛ إن القارئ وحده هو الذي يرى لهذه الألفاظ معنى. وتختلف المعاني على حسب أفق توقعات القارئ. وكل قارئ يمتاز بشيء يباين ما يمتاز به الآخر؛ لأن البيئة والثقافة والتربية وكثرة القراءة والخبرة والذكاء ليست متساوية عند الناس كافة.

وعندما يتولى القارئ المفكك أو الناقد التفكيكي قراءة النص يجد نصوصا أخرى داخل النص، كثيرة أو قليلة، هذه هي التي يقصدها التفكيكيون بمصطلح "تداخل النصوص" أو "التناص" وقد كثر استعمال هذا المصطلح الأخير في النقد المعاصر. وعلى ذلك لا يكون لدينا نص نقي أو أصيل تماما، وإنما لدينا نصوص مركبة مليئة بالاقتباسات وهي التي يطلق عليها "بينصية". ومن ثم لا يوجد شاعر ولا قصاص ولا مسرحي ولا مقالي ولا خطيب، وإنما يوجد فقط بينشاعر وبينقصاص وبينمسرحي وبينمقالي وبينخطيب. هذه العبارات المقتبسة والصور المقتطفة والتراكيب المأخوذة هي

التي تجعل النص مفتوحا من بدايته على النصوص السالفة، وتُصيِّره كذلك مفتوحا على النصوص التالية. أو قابلا للتفكيك والأخذ منه.

ولا يكتفي ديريدا بأن يكون الاقتباس خاصا بالجمل والصور والمشاهد كما في البلاغة العربية مثلاً. وإنما يتطرف فيرى كل كلمة في النص مقتبسة من نص سالف؛ لأن السلف استعملوا كل الكلمات، وحينما يستعملها المعاصرون فإنهم بذلك يقتبسون، وهم يضعونها في نسق مختلف، ومن هذا الاختلاف يستطيع القارئ أن يهب النص شيئاً من المعاني التي لا نهاية لها. وبالاستعمال المستمر للكلام المستعمل يتواتر التكرار. غير أن التناص أو تداخل النصوص يعد من ناحية أخرى فارقا يميّز نصاً من آخر؛ لأن الاقتباسات التي يحويها نص ما تختلف عن الاقتباسات التي يحويها نص آخر.

إن معظم التفكيكيين ركزوا جزءا كبيرا من عنايتهم على هذا التناص حتى إن غلاتهم وصفوا الكاتب بأنه مجرد ناسخ، وسموا النص بأنه منسوخ. ومن التفكيكيين الذين بالغوا في التركيز على التناص جوزيف ريدل الأمريكي، وهو الذي يرى النص الأدبي لعب تناص بالمعنى الدقيق(٢١).

كان أتباع النقد الجديد ينظرون إلى النص على أنه ذو وحدة عضوية كالكائن الحي، ولكن التفكيكيين يرون النص مليئا بالتناقضات والثغرات. ووظيفة الناقد التفكيكي إزاء النص كما يرسمها دي مان أن يظهر مواضع الفصل "والأجزاء المختبئة في الوحدات الجوهرية المفترضة"(٢٢) وكذلك يرى أن عمل الناقد التفكيكي هو "مسايرة العمليات الذاتية للنص"(٢٣)، لأن النصوص الأدبية تفكك نفسها بنفسها.

إن التفكيك يحاور النص، ويثير الشك حتى يحيل أية مُسلَّمة درج الناس على قبولها إلى أمر مشكل يحتاج إلى تفكير، ويبرز ما في النصوص من تناقص، ولا يتم ذلك إلا بقراءتين، القراءة الأولى قراءة عادية تشرح المعنى الظاهري، والثانية قراءة مضادة توضح ما في منطق النص من إعوجاج واضطراب. وتسمى هذه القراءة أحيانا "قراءة الضديد"، يقول عنها وليم راي: "لابد للقراءة التي تخلق المفارقة أن تحارب قالب الرأي المألوف عن طريق دعم نقيضه. وبعبارة أدق لابد للمرء أن يكشف هذا النقيض بين طيات القراءة التي تشجع الرأي المشترك. فلا بد للمرء أن يبيّن أن الخطاب المعين لا يعني الشيء الذي يدعي في الظاهر أنه يعنيه، أو أنه يعني أكثر مما يقره"(٢٤).

هذه القراءة التفكيكية تساعد على التعددية واختلاف وجهات النظر، وتشكك فيما تعارف عليه الناس، وتعيد تقليب ما انتهى الدارسون من درسه؛ لأن النص يمتلئ بالفجوات، وهي تعين على اللعب الحر للمعاني المختلفة.

وأعجب نمط القراءة التفكيكية بعض الناقدات الغربيات، حتى إن سو ـ إلين كيس تحبّذها فتقول: "إن القارئة النسوية لثلاثية الأورستيا سرعان ما تكتشف أن عليها أن تقرأ ضد النص. أي أن تتخذ منه موقفا معارضا ينتقض دلالته، ويقاوم مساره العاطفي الداخلي، والنتيجة التي ينتهي إليها. بل وأيضاً التقاليد التاريخية والثقافية التي تغلقه بما في ذلك المكانة التي يتمتع بها في التاريخ التقليدي للمسرح، والتقييم النقدي له في إطار هذا لتاريخ"(٢٥).

من أين يبدأ القارئ في تفكيك النص؟ هل يبدأ من العنوان؟ أو هل يبدأ من المطلع أو أول جملة؟ أو هل يبدأ من كلمة يراها مفتاحا للنص؟ هذه أسئلة ترد على الذهن حينما يريد الإنسان أن يمارس النقد التفكيكي أو القراءة التفكيكية. جواب هذه الأسئلة ميسور إذا علمنا رؤية التفكيكية للنص، إنها تراه مفتوحا وعلى ذلك يمكن الدخول إليه من أية ناحية، من الأول أو من الآخر، أو من الوسط، أو من تعبير حقيقي أو من تعبير مجازي، ومن سؤال أو من خبر. النص كله أبواب. ويزيد الأمر وضوحا أن نعلم أن التفكيكيين يعتقدون أن القارئ لا يكتشف النص ـ كما كان يعتقد أو يرى النقاد السابقون ـ وإنما يكتب النص، فالقارئ في النظرية التفكيكية مبدع يكتب النص. وهو الذي يهبه معناه، وتطرف بعضهم فرأى أن النص لا يوجد إلا حينما يوجد القارئ. يرى بارت أن النص موجود وغير موجود في آن واحد، موجود لأن هناك كاتبا أنشأه فهو منسوب إليه، وغير موجود لأنه لا ثبات له ولا حدود، وإنما يوجد بقابليته لإعادة الكتابة. ومادام الأمر على هذا الوضع فللقارئ كامل الحرية في تناوله للنص، وفي طريقة كتابته له.

وقد حاول بعض الدارسين للتفكيكية توضيح استراتيجيتها التطبيقية بوضع خطوات واضحة للعمل بمقتضاها، وهي الآتي:

١- يقرأ النص ضد نفسه بالتأمل في نسيجه ومنطقه، فكثيرا ما يتعارض باطنه مع ظاهره.

٢- يركز على الملامح البادية للكلمات مثل التشابه الصوتي والمعاني الجذرية للكلمات والاستعارات الميتة.

٣- يبحث عن التشتت في النص.

٤- تحلل فقرة واحدة بعمق حتى تصبح مستحيلة التعضيد للقراءة ذات الصوت الواحد لكي تتعدد المعاني.

٥- يفتش عن الحيل والفراغات والشروخ المختلفة في النص. هذه التقطعات تدعى أحيانا "الخطوط الخاطئة" وهي استعارة جيولوجية ترجع إلى الشروخ الموجودة في التكوينات الصخرية(٢٦).

هذه الخطوات تمثل المنهج التفكيكي العملي لمن أراد أن يسير في درس النصوص بمقتضاه. وإن كان الباحث يلاحظ أن كبار التفكيكيين يخرجون في بعض الأوقات على هذه الاستراتيجية التفكيكية، فيتصرفون بحرية إلى حد ما، فبلوم مثلا لا يعير التناص عناية كبيرة ويركز على الجوانب الأخرى في النص، ودي مان يهتم بالمجازات البلاغية أكثر من اهتمامه بغيرها، يبدو هذا في كتابة "أمثولات القراءة"، أو رمزيات القراءة كما يترجمها الدكتور محمد عناني، وبارت نفسه يتتبع الجوانب المتعة في النص، مثلما عمل في تحليل قصة بلزاك "ساراسين"، وهو ينظر إلى النص نظرته إلى الجسد الجميل ويبحث عن اللذة في نواحيه. ولذلك يخضع النص لاستراتيجيات تفكيكية عديدة على يد النقاد من أصحاب هذه النظرية. وكلمة استراتيجية يفضلها ديريدا ويكثر من استعمالها.

ترى هل النصوص كلها سواء في نظر التفكيكيين؟ نعم إنهم يرونها كذلك. فالنصوص الأدبية مثل النصوص العلمية والسياسية والدينية والاقتصادية وغيرها؛ لأنها تستخدم اللغة بطريقة واحدة. أي أنها لا تشير إلى شيء خارج ذاتها، وتنشأ دلالتها بالاختلاف، ولاتحد معانيها، بل هي في توالد مستمر باللعب الحر للدول، وهذا نقيض ما يراه أصحاب النظريات الأخرى إذ يفرقون بين النصوص الأدبية وغيرها. كان الفلاسفة ينظرون إلى لغة الفلسفة على أنها لغة مجردة دقيقة؛ ولذلك فهي أفضل من لغة الأدب، ولكن ديريدا فكك لغة الفلسفة وأثبت أنها لا تختلف كثيرا عن لغة الأدب، لأنها لا ترجع إلى حقائق خارج محيطها.

ولم تقتصر تسوية التفكيكيين على النصوص الإبداعية فحسب، وإنما سووا كذلك بين النصوص الإبداعية والنصوص النقدية التي تقوم عليها؛ لأنها إبداع في رأيهم. فالقارئ أو الناقد وهو يقرأ النص أو يكتب عنه يبدعه من جديد، ولذلك يصحح تفكيك هذا النص النقدي أو النص الشارح بلغة التفكيكيين، وهكذا إلى ما لا نهاية، وبهذه الصورة تنتشر المعاني وتتسع بلا حدود. وحينما ننظر بمنظار أهل التفكيك لا نجد نقدا بل نجد إبداعا متراكما. حقا إن كثيرا من شروح كبار التفكيكيين مكتوبة بأسلوب جميل، مثال ذلك شرح بارت لقصة بلزاك، عدد صفحات القصة حوالي عشرين، وجاء تفسيرها في كتاب يحوي مئتي صفحة تقريباً، بث فيها أثر القصة في نفسه جملة جملة وصورة صورة.

تقول إديث كروزويل عن تفسير بارت المذكور لتلك القصة البلزاكية: "المؤكد أن النص الذي قدمه بارت نص ممتع ومثير، ولكن يمتزج فيه التشويق بالغواية على نحو يدنو بالنص إلى حال الشعر، وينأى به عن النقد في الوقت نفسه، فالإثارة المتعة التي يخلقها هذا النص ترجع إلى بارت أكثر مما ترجع إلى بلزاك"(٢٧). لقد أصبحت هذه القراءات إبداعا، وبالغ بعضهم في تداعياته وهو يفكك حتى خرج عن الحد.

## ٤- اتجاهات التفكيك:

هناك اتجاهان بارزان في التطبيق التفكيكي هما: اتجاه جاك ديريدا مؤسس النظرية، واتجاه رولان بارت. أما الأول فيركز على نقد منطق النصوص، ويعنى بإبراز ما فيها من فراغات وشروخ، ويركز على ما فيها من تناص، ويظهر ما فيها من التشتت وعدم الوحدة. وأما الثاني فلا يشغل نفسه بنقض منطق النصوص، وإنما يهتم بتحليل جمل النص، وإظهار آثارها، ومدى ارتباطها بغيرها من الإبداعات، ويوجه جهده الأكبر نحو إعادة إنتاجها بلذة نفسية. وقد كتب رولان بارت في كتابه الذي ألفه عن نفسه أن النص يشبه صفحة السماء، والقارئ كالعراف الذي يحدد بعصاه حدودا ويرسم خطوطا، ويتتبع رحلة الطيور التي هي المعاني، ويترقب القطع المقتبسة(٢٨). ومادام الناقد أو القارئ كالعراف، فإن وظيفته هي التعرف على المواقع المثيرة والمواضع المهمة، وليس البحث والتنقيب على التناقض كما يفعل أتباع الاتجاه الأول من التفكيكيين.

وهناك اتجاه ثالث وهو التفكيكية النسائية، وقد اختلط هذا الاتجاه بالإيديولوجية التي تؤمن بها الحركة النسائية في أمريكا وأوربا. إن بعض الناقدات ممن ينتمين إلى هذه الحركة وجدن في التفكيكية منهجا يساعدهن على بلوغ آمالهن، فاستخدمنها، وبعضهن أحسن الاستخدام مثل سو - إلين كيس التي كتبت كتابة تفكيكية للرؤية التقليدية لتاريخ المسرح، وجعلت نقطة انطلاقها التفكيكية في بحثها "ظاهرة تنكر الرجال في ملابس النساء في العصور الكلاسيكية للقيام بأدوارهن في المسرح"(٢٩).

## ٥- محاسن التفكيكية ومساوئها:

كل نظرية من النظريات الأدبية التي ظهرت عبر التاريخ لها جوانب إيجابية وأخرى سلبية، ولم يحدث أن وجدت نظرية كاملة أبداً. ولا تشذ النظرية التفكيكية عن هذا القانون العام أو القاعدة المطردة، وعندما نبحث عن محاسن التفكيكية نجد عدداً منها يمكن إجماله فيما يأتي:

**١- تحريك العقول بالشك في الأصول التي يقوم عليها صرح الفكر الغربي بما في ذلك مركز الإحالة.**

**٢- فتح النصوص وتشجيع الأذهان على فهمها وتفسيرها والحكم الإيجابي بقبول كل هذه القراءات، وهذا بمثابة الاجتهاد ونبذ التقليد.**

**٣- تشجيع الإبداع النقدي باحترام النصوص الشارحة وجعلها نصوصا إبداعية، وقد كان الناقد قبل التفكيكية ينظر إليه على أنه ظل تابع للمبدع، وينظر إلى النقد على أن وجوده معلق**

بوجود النص الإبداعي. فأثبتت التفكيكية أن النص لا يفهم إلا بالتفسير، ولا يتحدد له معنى إلا بالقراءة الشارحة، والتفسير لا يكون إلا مع وجود النص.

٤- القضاء على القسمة الشائعة للغة إلى حقيقة ومجاز، وإثبات أن اللغة كلها مجازات تنتشر من مكان لآخر ويسهم في ذلك الانتشار اللعب الحر.

٥- العناية بتواصل النصوص وترابطها.

هذا ما كان عن محاسنها أو بعض محاسنها. أما مساوئها كما يرى أعداؤها، وخاصة جون إليس الذي كتب كتابا بعنوان "ضد التفكيكية Against Deconstruction" سنة ١٩٨٩م، يمكن أيضاً تركيزها فيما يلي:

١- إشاعة الشك في كل شيء، والدعوة إلى نقض كل الإنجازات الفكرية مما يؤدي إلى خلخلة المجتمع.

٢- التفكيكية لم تقدم مشروعا إيجابيا. كل ما قدمته داخل في الحيز السلبي فهي تهدم ولا تبني.

٣- التوسيع المفرط لمجالات النص بحيث يشمل العالم كله. كأنه مكتبة ضخمة.

٤- تركيز التفكيكية على عدم فهم النص يصيب النفوس بخيبة أمل.

٥- نفي التفكيكية للقراءة المعتمدة، والتسوية بين القراءات في الصواب والخطأ فتح الباب لأدعياء القراءة والنقد فكتبوا كلاما أشبه بكلام الدجالين والمشعوذين لا يفهمه أحد.

هذا أهم ما وجه للتفكيكية من نقد، والحق أن فتح الباب للدجالين كان الضربة القاصمة للتفكيكية؛ لأن الناس العقلاء يملون من الشعوذة بكل أنواعها حتى لو تخفت في ملابس العلم أو الأدب أو النقد. لقد انصرف الناس عنها وكتبت شهادة وفاتها في الغرب، وبدأت نظرية جديدة تنمو وتزدهر، وهي "التاريخية الجديدة New Historicism".

## ٦- رحلة التفكيكية إلى بلاد العرب:

وصلت النظرية التفكيكية إلى العالم العربي بعد أن أشاح بوجهه عنها العالم الغربي، وهذا يخص جانبها الأدبي. أما الجانب الفلسفي من التفكيكية فقد وصل إلى مصر مبكرا؛ إذ كان الدكتور أبو العلا عفيفي يدرس التفكيكية الفلسفية لطلاب قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ضمن النظريات والمناهج الفلسفية المعاصرة. ولهذا التأخر عدة عوامل أشدها عدم العناية الكافية بالترجمة، وعدم الاهتمام بالمترجمين، حتى إن بعض الجهات المسؤولة عن الثقافة وتطويرها تعدّ العمل المترجم نصف عمل أو ربع عمل أو لا شيء،ومن ثم انصرف العالمون باللغات الأجنبية عن نقل النظريات والأفكار الحديثة، وعن متابعة ثمرات العقول الكبرى.

على أية حال وصلت التفكيكية إلى بلاد العرب على يد بعض الدارسين العرب الذين تلقوا تعليمهم في الغرب، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا. ومن هؤلاء الدكتور عبد الله محمد الغذامي الذي درس في أمريكا، وأعجب بالمنهج التفكيكي أيما إعجاب. وكان من نتاج هذا الإعجاب أن كتب كتابا جيّدا بعنوان **الخطيئة والتفكير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر**. درس فيه شعر حمزة شحاته، وقد وضح المؤلف نقاط منهجه التفكيكي كما يأتي:

١- القراءة الاستكشافية للنص كله مع بعض الملاحظات.

٢- القراءة التذوقية ومحاولة استنباط النماذج الأساسية.

٣- القراءة النقدية التي تعمد إلى فحص النماذج بمعارضتها مع العمل على أنها كليات شمولية تتحكم في تصريف جزئيات العمل.

٤- دراسة النماذج على أنها وحدات كلية، وندرسها على مفهومات النقد التشريحي (أي التفكيكي).

٥- الكتابة وهي إعادة البناء، وفيها يتحقق النقد التشريحي، إذ يصبح النص هو التفسير والتفسير هو النص(٣٠).

هذه هي خطوات المنهج التفكيكي عند الغذامي. وإذا تأملنا فيها على ضوء ما عرفنا من قواعد النظرية التفكيكية عند الغربيين، فسنجد أن تفكيكية الغذامي نسخة عربية معدلة. وأظن أن ما حمله على التعديل هو اختلاف البيئة والمناخ، ولذلك نجح ولم يصطدم في السعودية، على الرغم من أن تلك المملكة أشد البلاد العربية محافظة. وهذا يدل على ذكاء الغذامي وإدراكه للفروق وحسن تعامله معها.

كيف عرفنا أن الغذامي عدل المنهج التفكيكي؟

عرفنا ذلك بما يأتي:

**أولا** ـ نوع المصطلح الذي يستخدمه. فمثلا يسمي النص عملا. وكلمة "عمل" مصطلح من مصطلحات "النقد الجديد New Criticism"، وقد تعمد التفكيكيون الغربيون البعد عنه؛ لأن العمل له حدود، وهم يرون أن النص لا حدود له.

**ثانيا** ـ عنايته بالكشف أو الاستكشاف - على حد تعبيره - والتفكيكيون لا يؤمنون بأن التفكيكي يستكشف النص، وإنما يعتقدون أنه يبدع النص، بل بالغ بعضهم حتى قال: لا يوجد إلا بعد أن يوجد القارئ.

**ثالثاً** ـ اهتمامه بالنموذج أخرجه عن حيّز التفكيكية الغربية، لأن النموذج من مصطلحات البنيوية، ومن لُبِّ نقدهم، وقد ثار عليهم التفكيكيون لأن النموذج يغلق النص، وهم ضد إغلاق النصوص.

**رابعاً** ـ توجهه لإعادة البناء مخالف للتفكيكية الغربية؛ لأن الأصل في المنهج التفكيكي هو التحليل وبيان تناقض النصوص، صحيح أن الغذامي في كتابه المذكور أعلن أنه لا يرضى عن اتجاه ديريدا التفكيكي؛ لأنه ينقض ولا يبني، وأنه سيأخذ باتجاه رولان بارت، لأنه ينقض ثم يبني. لكن الحقيقة أن رولان أيضاً لا يبني وإنما يبدع نصاً جديداً، ففكرة بناء النص بعد تفكيكه فكرة غذامية خالصة أبعدت تفكيكيته عن تفكيكية الغرب، ولا أعيب عليه مسلكه هذا؛ فإن تلك المناهج الغربية ليست قرآناً يتلى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنما هي نشاط إنساني يحمل في طياته قصوره كأي عمل إنساني. وما أعارضه فيه هنا هو أنه يثبت للقارئ العربي أنه يسير على منهج معاصر سيرا دقيقا، وحقيقة الأمر غير ذلك. حقا إنه معجب بالتفكيكية أو التشريحية كما يترجمها لدرجة أن يقول عنها: "وهذا يضعنا في طريق مدرسة النقد التشريحي الذي يبرز أمامنا كأجمل ما قدمه العصر من إنجاز أدبي نقدي حيث يعطي مجالا تاما للتركيز على النص، وفي نفس الوقت يفتح بابه للدور الإبداعي للقارئ..."(٣١).

وعلى درب التفكيكية التي طوّرها وهذّبها لنفسه مازال يسير؛ إذ أصدر كتابا بعنوان **القصيدة والنص المضاد** سنة ١٩٩٤م(٣٢)، ونشر عام ١٩٩٩م كتابا آخر عنوان **تأنيث القصيدة**(٣٣) وفيهما دراسات قيّمة تظهر أن إعجابه بالتفكيكية لم يفتر حتى الآن.

وأهم ما يميّز الغذامي دقة أسلوبه، فهو يعرف ما يقول، ويحسن عرضه مما يشوق القارئ، وإن عارضه فيما يرى أو في بعض ما يكتب. علاوة على ذلك سعة معرفته بالتراث العربي التي هيأت له نصاعة البيان.

ومن التفكيكيين العرب، وإن لم يعلن ذلك الدكتور مصطفى ناصف، ويرى الدكتور جابر عصفور أن الدكتور ناصف من أتباع المنهج التأويلي وليس التفكيكي. غير أنّ القارئ لِمَا كتبه ناصف يلاحظ أنه يعتمد على التفكيك إلا ما أصدره أخيرا منذ حوالي ثلاث سنوات، فقد كتب كتابا بعنوان: **نظرية التأويل**، ويبدو أنه رأى التأويل أفضل طريق لفهم تراثنا العربي والإسلامي. وهو واسع المعرفة بالمناهج الأوربية، عميق القراءة في التراث العربي، ولعل السبب في عدم إعلانه عن منهجه التفكيكي راجع إلى أنه يتصرّف فيه بما يخدم المسألة التي يعرض لها، فلا يلتزم بحرفية النظرية أو المنهج المنبثق عنها. يضاف إلى ذلك أنه يرى وجوب الاتساع في الثقافة والمعرفة. يقول في كتابه **نظرية المعنى**

**في النقد القديم**: "إن النص الأدبي الرفيع لا يمكن أن يتفتح أمامنا دون ثقافة واسعة في المجال العقلي والروحي الذي ينتمي إليه النص"(٣٤). هذا الاتساع الثقافي بالسياق العام للنص يعين على سعة الفهم وعمقه، وهو يقترب مما يقوله التفكيكيون الغربيون: إن النص مفتوح على نصوص أخرى ومتداخل معها، وبالتأكيد لا يمكن للدارس إدراك ذلك إلا بالتوسع في القراءة والتدبر في إدراك العلاقات.

وفي موضع آخر من الكتاب نفسه يقول: "وربما كانت النصوص الأدبية إجمالا أشبه بالآلات، كل فرد يستعملها بطريقته الخاصة، ولذلك كان من غير الممكن وغير المفيد أن ندعي وجود معنى واحد صواب أو ندعي بعبارة أخرى خطأ ما عداه من تفسيرات"(٣٥). هذا النص يشي بمقولة التفكيكيين إن كل القراءات خطأ قراءات، أي خاطئة، ومفهوم المخالفة أن كل القراءات صحيحة، ومعنى ذلك أن أي تفسير للنص مقبول؛ لأنه يصيب جزءا من المعنى فيكون صحيحا من هذا الجانب، وهو أيضاً لم يحط بكل معاني النص فهو خاطئ من هذا الجانب كذلك، ولذلك يفتح الباب للاجتهادات المتعددة في دراسة النصوص، ولا يسمح لأحد بحجب الآراء الأخرى أو الادعاء الكاذب والتنفخ المتغطرس بأن رأيه وحده هو الصواب، ورأي الآخرين غلط أو عين الخطأ.

يسير الدكتور ناصف بخطى وئيدة في تفكيكه و درسه لتفاسير القرآن المجيد وهو يبحث عن المعنى فصارت الشروح نصاً يشرحه هو وينقضه أحيانا، لأن هذه التفسيرات اجتهادات بشرية، ولكنه أبدى غاية التوقير للقرآن المجيد، ولا شك أن موقفه هذا يدل على أن عقله أكبر من علمه، فلم يثر زوابع تصدع المجتمع العربي أكثر مما هو متصدع، إنه يفسر ويناقش ويحتج بأسلوب العالم الراسخ الذي يحرص على الخير، فيدع قارئه يفكر فيما يقول، ويعيد النظر فيما يعتقد.

وفي لبنان يقف الدكتور علي حرب، وهو أستاذ متخصّص في الفلسفة، يعلن الحرب التفكيكية على كل شيء، فلسفة أو علم أو دين أو أدب أو سياسة أو اقتصاد، ولو وجد حجرا لفككه، ولكنه ليس في اتزان الدكتور ناصف، ولا في عمق علمه، ولا في دقة عرضه للمسائل.

يقول حرب في كتاب له بعنوان **نقد النص**: "لا أكتب لإبلاغ الناس أو تعليمهم، ولا أفكر لكي أحسن قيادة عقلي وسط الغابة باتباع النهج الواضح أو سلوك الدرب الآمن أو الآمنة، وإنما أفكر في أن أعبر عن إرادتي في أن أعرف، وأفكر لكي أزحزح وأخربط أو لكي أقلب الطاولة وأكشف المحجوب. من هنا فأنا لا أهتم بما ينص عليه القول بقدر ما أهتم بما لا ينص عليه. منطلقي في ذلك أن النصوص ليست مجرد كشوفات رائعة، وإنما هي استراتيجيات لغوية وفكرية هي أشبه بحقول مفخخة بألغام دلالية ينبغي تفكيكها(٣٦). يشير قوله هذا إلى أنه شديد التمسك باتجاه ديريدا

التفكيكي. حتى إنه يستعمل مصطلح ديريدا "الإستراتيجية" وهو المصطلح المفضل لديه. ولكنه ليس مثل ديريدا، إذ كان ديريدا ينظم القول ليعلم. ويبرز التناقض ليهدم. ويقيم بحوثه على أسس لغوية مقنعة إلى حد ما. بيد أن حرب الذي يحاكيه يفكر لكي "يخربط ويقلب الطاولة" في حالة هياج. حتى التشبيه الذي جاء به تشبيه حربي مزعج: "هي أشبه بحقول مفخخة بألغام".

هذا نمط من التفكيكية في بلاد العرب يختلف عن نمط الدكتور ناصف ونمط الغذامي. وللأسف الشديد سيطرت طريقة حرب على بعض الشباب العرب ممن يقلدون التفكيكية. وتطرّفوا حتى صار التخريب غايتهم. ويظهر أن الأوضاع العربية المتهرئة جعلتهم يفقدون الثقة في كل شيء. ولما عرفوا التفكيكية أعجبتهم. ففككوا كل ما تقع عليه أعينهم دون أن يبنوا شيئاً مفيداً. مجنون ذلك الذي يهدم بيته ويجلس في العراء دون أن يبنيه أحسن مما كان.

تلمع ومضات عقلية جيّدة في كتابات الدكتور علي حرب تثير العقل. وتحمله على التساؤل وإعادة النظر. ولكنها تأتي وسط رعد وبرق وغيوم. من ذلك قوله: "فالمثقف الثوري بالطبع يريد تغيير العالم بأي ثمن متجاهلا قوة الأشياء وطبيعة الكائنات. ومتعاميا عن إيقاعات الزمن وآليات التطور. وإذن النتيجة أن مشاريع التحرير والتغيير آلت إلى عكس المرجو منها، وأسهمت في إنتاج أشكال من السيطرة هي أسوأ وأرهب من تلك التي سعت إلى تغييرها. وهذه هي نتيجة الوهم بأننا نملك الحقيقة ونسيطر على الزمن. هذه هي نتيجة العمل على تسريع التاريخ وحرق المراحل وتزوير الحقائق أو تبسيط الواقع: غضب الوقائع وانتقام التاريخ وحدوث ما لم يكن يتوقع وما يصدم ويذهل. والمثقفون هم أكثر الذين يفاجأون ويصدمون بما يحدث ولا عجب فنحن نفاجأ بالذي يحصل بقدر ما نتوهم ونتسرع"(٣٧).

لقد أتقن حرب أدوات التفكيك التي أنشأها ديريدا، ونقض كثيرا من المقالات والكتب التي كتبها المعاصرون. وأبان عن بعض ما فيها من شروخ. ولكنه لم يقدم لنا عملا إيجابيا. فصدق عليه ما صدق على ديريدا: إنه ينقض ولا يبني.

وهناك تفكيكي آخر من أبناء العرب هو الدكتور عبد الله إبراهيم كتب كتابين مفيدين هما:

أ- المركزية الغربية. إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات سنة ١٩٩٧م(٣٨).

ب- الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة. تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة. سنة ١٩٩٩م(٣٩).

والكتاب الثاني يعنيني أكثر من الأول في هذا البحث لأنه يتناول تفكيك كثير من الكتب والمؤلفات العربية التي وضعها الروّاد من أمثال الدكتور طه حسين. والدكتور محمد حسين هيكل.

والدكتور زكي نجيب محمود وغيرهم. وهو يستعمل أدوات المنهج التفكيكي ومصطلحاته كالحضور والغياب والمرجع أو المرجعية وانزياح الدلالة والثنائيات الضدية والنقض والاختلاف والمطابقة والسلطة.

يتضح من الكتاب أن المؤلف يتقن التفكيكية جيّدا. ويحسن استعمال مصطلحاتها. وقد بدأ بتفكيك مبدأ المقايسة. ذلك المبدأ الذي يراه شائعا لدى الدكتور طه حسين، إذ إن المؤلف قرأ كتب الدكتور طه حسين مثل كتاب قادة الفكر والأيام وعلى هامش السيرة وغيرها. فبان له أنه يستعمل المقايسة باستمرار. يقيس الشرق على الغرب. ويقيس مناهج العرب على مناهج الأوربيين. ويقيس المرصفي على نلّلينو. وتاريخ العرب على تاريخ اليونان. وما أشبه. فجنح المؤلف نحو تفكيك هذا المقياس الذي اتكأ عليه طه حسين. وبنقض ذلك يبيّن ما في فكر الدكتور طه من خلل. وما في مؤلفاته من تصدّع أو شروخ بمصطلح التفكيكيين.

ولجأ الدكتور عبد الله إلى الإكثار من الشواهد أو النصوص من المؤلفات التي وضعها الدكتور طه حسين لإثبات صحة ما يرى أو يقرر. وهو يوجز نتائج تفكيكه أحيانا في آخر الباب أو الفصل الذي يعرض فيه لكاتب من الكتاب. من ذلك مثلا قوله: "يكشف مبدأ المقايسة في خطاب طه حسين عن آلية تشتغل ضمن نظام شبه ثابت فما أن تطرح قضية ما في الأدب والفكر إلا ويصار البحث لها عن نظير في الفكر الغربي سواء كان حديثا أو قديما. وتجري مضاهاة ومقارنة بين الموضوعين. ويصار إلى تثبيت القضية أو نفيها في ضوء إثبات أو نفي القضية الأخرى. فكل شيء يقدر صوابه بمقدار مناظرته لما هو يوناني أو روماني أو أوربي سواء كان ذلك في قضية البحث الأدبي والفكري والتاريخي أو في قضية التعليم والتربية ـ ومستقبل الثقافة في مصر يحشد بأدلة حول هذا الموضوع ـ أو في القضايا الاجتماعية والسياسية. ولا تقف قراءة طه حسين لموضوعاته عند حدود البحث والمماثلة بين الموضوعات الشرقية والغربية ـ وهو أمر ألمحنا إليه من قبل ـ إنما تتجاوز ذلك إلى الامتثالية. وثمة فرق بين المماثلة والامتثال"(٤٠).

هكذا يرى بعد قراءة نصوص مما كتب طه حسين. وأدب على تفكيكها. إن المنظار الذي يرى به طه حسين والمقياس الذي يقيس به هو الغرب. فما رآه الغرب صحيحا فهو صحيح. وما رآه خطأ فهو خطأ. وهو مقياس مطّرد. يخضع له خضوعا تاما. فلا يناقش الغرب ولا يعترض. ولا يشك فيه مجرد الشك. إنه الامتثال التام. امتثال الضعيف أمام القوي.

هذه قراءة تفكيكية يمكن أن تتلوها قراءة تفكيكية أخرى. وتخرج بنتائج مضادة لهذه النتائج. وقد يأتي دارس تفكيكي آخر فيفك ما قاله الدكتور عبد الله إبراهيم. فيكون تفكيك التفكيك. أو شرح اللغة الشارحة بمصطلح القوم.

## ٧- الهجوم على التفكيكية في بلاد العرب:

مثل أية نظرية جديدة لابد أن تواجه موقفين: الأول راغب فيها مدافع عنها، والثاني كاره لها هاجم عليها. وبين أقصى اليمين وأقصى اليسار يأتي وسط معتدل ينظر في النظرية، ويتأمل في جوانبها، فيأخذ خيرها ويترك شرها، ولا يكتفي بالاقتصار على أخذ أفضل ما فيها، وإنما ينميه ويستفيد منه.

واجهت التفكيكية قبولا في بلاد العرب، وقد سبق الحديث عنه أو عن بعضه، وواجهت مقاومة عنيفة أيضاً فيها. من أقوى الذين حملوا عليها الدكتور عبد العزيز حمودة، وهو أستاذ متخصّص في الأدب الإنجليزي، وقد ورد هجومه عليها في كتابه **المرايا المحدبة** في الفصل الرابع الذي وضع له عنوان "التفكيك والرقص على الأجناب" والعنوان كما ترى يحمل على الضحك والسخرية، ويوحي بموقف المؤلف منها.

وخلاصة هجوم الدكتور حمودة تتحدّد فيما يلي:

١- التفكيك نظرية هدامة لا تفيد بشيء.

٢- التفكيكيون يُموّهون على الناس بدعاواهم وادعاءاتهم أنهم أتوا بجديد، والحق أنهم لم يأتوا بشيء.

٣- إعلانهم أنهم قضوا على المؤلف ليس بصحيح؛ إذ إن أصحاب النقد الجديد كانوا قد أبعدوا المؤلف، وعكفوا على النص، فما كتبه بارت في مقاله "موت المؤلف" بضاعة قديمة.

٤- عنايتهم بقراءة النص لم يكونوا هم أول من اهتم بهذا الجانب، وإنما كان الأول هو ريشاردز صاحب كتاب **مبادئ النقد الأدبي** وكتاب **كيف تقرأ صفحة؟**. ثم جاءت نظريات القراءة والتلقي مثل نظرية هولب(٤١) وهي معاصرة للتفكيكية.

٥- الالتواء والغموض في عباراتهم، والتطرف في التسوية بين القراءات المختلفة، وضرب أمثلة للتطرف التفكيكي بكتابات إيهاب حسن، وبعض ما كتبه ديريدا(٤٢).

هذه أهم المآخذ التي أخذها المؤلف على التفكيكية، وأبان عن موقفه منها، وبسط أحوال التفكيك وأطال وأعاد أحيانا. ولا ريب أن له جانبا من الحق في نقده للتفكيكية والتفكيكيين، فهجومه على المبالغات الشديدة في تحويل لغة النقد إلى نص إبداعي مثلاً له حق فيه، ولاسيما إذا كانت مثل ما يصنعه إيهاب حسن. وكذلك حملته على الغموض المطلق في بعض كتاباتهم لها ما يبررها، لكن أين هي النظرية الكاملة؟ كل نظرية منذ أفلاطون حتى الآن لها جانب إيجابي وجانب سلبي، إلا أنها

نشاط إنساني جدير بالفهم والعطف، وبعضها أفاد كثيرا ووسع العقل. مثل ذلك النظرية التفكيكية تفيدنا في عدم تقديس ما يكتبه الآخرون، ولاسيما كبار الكتاب؛ لأن كل نص يضم في طياته بعض الأخطاء أو الشروخ كما يقولون، هذا الموقف يحرر النفس من التعبد بنصوص البشر ـ وقد استولى النقص عليهم ـ ونحن العرب في حاجة إلى ذلك حتى لا يغلق باب الاجتهاد ونقع في التقليد.

ومن محاسن التفكيكية أيضاً فتح النص، فأوجد هذا صلة بين النصوص المختلفة عبر العصور، وألزم الدارس أو الناقد بتوسيع دائرة القراءة.

بيد أن خطأ بعض التفكيكيين الفادح يكمُن في الرغبة الشيطانية المحمومة في الهدم. وأعتقد أن هذه المسألة هي التي جعلت الناس ينصرفون عنها في أمريكا وأوربا حتى ماتت هناك، وأظن أنها ستموت عندنا قريبا، لأن الذي يهدم ولا يبني لا يقبل عليه عاقل.

**خاتمة:**

ظهرت التفكيكية في الستينيات وازدهرت في السبعينيات وانتهت في الثمانينيات، وقد كان ديريدا الفرنسي أول من بدأ الكتابة فيها والدعوة إليها. وكان في بداية أمره يقصد هدم الصرح الفلسفي الأوربي الذي يقوم على مركز ثابت، يحيل إليه كل شيء، وقد نجح ديريدا إلى حد ما في هدفه، وانتقل الأمر إلى الأدب ونقده، وتبعه بعض الفرنسيين، وأعظمهم رولان بارت، ولكن لم تلق قبولا كبيرا في أوربا.

وانتقلت التفكيكية إلى أمريكا، وهناك لقيت ترحيباً من بعض الشباب وخاصة في ييل، واستطاع جاك ديريدا أن يجد عملا هنالك، فرحل إلى الولايات المتحدة، وأخذ ينشر استراتيجيته التفكيكية. والحقّ أن التفكيكيين الأمريكيين أمثال دي مان قد وضعوا كتبا مفيدة في الدرس الأدبي، ومن هذه الكتب **العمى والبصيرة** و **أمثولات القراءة** لدى مان.

وكان للتفكيكيين مصطلحات خاصة كالحضور والغياب والمركزية والأثر والهوامش والشروخ واللغة الشارحة، استطاعوا بها أن يجعلوا نظريتهم تتميّز بالاستقلال والجدّة، وإن كانت بعض عناصرها مأخوذة مما سبق كما يرى المضادون لها.

وانتقلت هذه النظرية إلى بلاد العرب، وتعاطف معها بعضهم وهذّبها قوم منهم وطبقوها، ووقف آخرون من أبناء العرب ضدها وقاوموها، وإن كانت قد قضت نحبها في الغرب، فإنها حية تسعى في بلادنا. هذا والحمد لله رب العالمين.

# هـوامش

1. Dictionary of Philosophy, G. Vesey and P. Flulkes, Collins, London, 1990, Derrida, Jacqes, P. 78-79.

2. Speech and Phenomena 1973.
Of Grammatology 1976.
Writing and Difference 1978.

هذه تواريخ ترجمتها ونشرها بالإنجليزية، وقد نقل كاظم جهاد الكتاب الثالث إلى العربية، ونشرته دار توبقال بالمغرب، ١٩٨٨م، بعنوان **الكتابة والاختلاف**.

3. A Dictionary of Modern Critical Terms, Roger Fowler, London, 1987, P. 56.

4. The Penguin Dictionary of Literary Terms and Literary Theory, J. A. Cuddon, Third Edition, Penguin Books, London 1992, P. 222.

5. Beginning Theory, An Introduction to Literary and Cultural Theory, Peter Barry, Manchester University Press, New York, 1995, P. 61.

6. A Dictionary of Literary Terms, Martin Gray, Longman, York Press, 1994, P. 81.

٧- **المصطلحات الأدبية الحديثة**، دراسة ومعجم، إنجليزي عربي، الدكتور محمد عناني، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٦م، ص ١٣١.

8. A Dictionary of Literary Terms, Martin Gray, P. 81.

٩- **المصطلحات الأدبية الحديثة**، ص ١٣١.

١٠- **الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية**، الدكتور عبد الله الغذامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١١- **دليل الناقد الأدبي**، الدكتور ميجان الرويلي، والدكتور سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م، ص ٥٣.

١٢- **مناهج النقد المعاصر**، الدكتور صلاح فضل، مهرجان القراءة للجميع القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٩٤-١٠١.

١٣- **النظرية الأدبية المعاصرة**، رامان سلدن، ترجمة الدكتور جابر عصفور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٦٣-١٨٤.

14. The Fontana Dictionary of Modern Thinkers, Edited by Alan Bullock and R. B. Woodings, London 1992, P. 178, Derrida, Jacques, Heidgger, Martin, P. 315.

١٥- **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**، الدكتور عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، ذو الحجة ١٤١٨هـ/ إبريل ١٩٩٨م، ص ٣٠٢.

١٦- المصدر السابق. ص ٢٩٥.

17. Roland Barthes: Aconservative Estimate. Philip Thody. Chicago 1983. P. 113.

18. Of Grammatology. Jacque Derrida. P. 158. Beginning Theory. P. 70.

19. Twentieth Century Literary Theory. A Reader Edited by K. M. Newton. Second Edition. Hong Kong. 1998. P. 120- 123.

هذا الكتاب مصدر مهم لنصوص النظريات الأدبية في القرن العشرين. وهو يحتوي على النصوص كما وضعها أصحابها دون أي شرح أو تعليق. وهو يشبه كتاب **جامع المتون في اللغة العربية**.

The Death of The Author.

20. Living on Border Lines. Jacques Derrida in Deconstruction and Criticism. Harold Bloom. New York. 1979. P. 83-84.

نقلا عن **المرايا المحدبة**. ص ٣٦٦-٣٦٧.

21. From Heidegger to Derrida to Chance Doubling and Poetic Language. in Willian Spanas. Martin Heidgger and The question of Literature. Indiana. 1979. P. 249.

والنص في **المرايا المحدبة**. ص ٣٦٩.

٢٢- **نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر**. ديفيد بشبندر. ترجمة عبد المقصود عبد الكريم. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٦م. ص ٧٦.

٢٣- **النظرية الأدبية المعاصرة**. رامان سلدن. ترجمة دكتور جابر عصفور. الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة. ١٩٩٥م. ص ١٧٥.

٢٤- **المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية**. وليم راي. ترجمة الدكتور يوئيل عزيز. دار المأمون. بغداد. ١٩٨٧م. ص ١٩٤.

٢٥- **التفسير والتفكيك والإيديولوجية ودراسات أخرى**. اختيار وتقديم نهاد صليحة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. عام ٢٠٠٠م. ص ١٦٧.

26. Beginning Theory. P. 73.

٢٧- **المرايا المحدبة**. ص ٣٥٨.

٢٨- المصدر السابق. ٣٣٧.

٢٩- **التفسير والتفكيك والإيديولوجية**. ص ١٥٠.

٣٠- **الخطيئة والتفكير من البنيوية إلى التشريحية**. ص ٨٩.

٣١- المصدر السابق. ص ٨٣.

٣٢- **القصيدة والنص المضاد**. الدكتور عبد الله محمد الغذامي. المركز الثقافي العربي بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٩٤م.

٣٣- **تأنيث القصيدة**. الدكتور عبد الله محمد الغذامي. المركز الثقافي العربي. بيروت. ١٩٩٩م.

٣٤- **نظرية المعنى في النقد العربي**. الدكتور مصطفى ناصف. دار الأندلس. بيروت. ص ١٦٧.

٣٥- المصدر السابق، ص ١٦٩.

٣٦- **نقد النص**، الدكتور علي حرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، ص ٢٧٦.

٣٧- المصدر السابق، ص ٥٨.

٣٨- **المركزية الغربية، إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات**، الدكتور عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٧م.

٣٩- **الثقافة العربية والمرجعيات المستعمارة، تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة**، الدكتور عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٩م.

٤٠- المصدر السابق، ص ٢٩.

41. Reception Theory, A Critical Introduction, Robert Holub.

هذا الكتاب ترجمه الدكتور عز الدين إسماعيل بعنوان **نظرية القراءة، مقدمة نقدية** ـ وطبعها النادي الأدبي في جدة، سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٤٢- أورد المؤلف صورا للكتابة التفكيكية والحداثية المتطرفة بالإنجليزية كتبها إيهاب حسن وديريدا، وهو يراها طرقا مستفزّة لما يسمى باللغة الشارحة، أو لغة النقد الأدبي، في الصفحة رقم ٣٥١- ٣٥٦ من **المرايا المحدبة**.

* * * *